القصص

قصة عراقية واقعية

الشـــفاء ..

بقلم سعيد عبد الاله الشهابي

جلست على أريكة فى سهوم أخاذ تطالع عيناها كتاباً بق مفتوحاً على مائدة صغيرة أمامها زهاء الساعة دون أن تتلو حرفاً أو تقلب صفحة . كانت عيناها السوداوان الساجيتان العميقتا المعنى تنظران وتطيلان النظر فى لا شىء كمن يريد أن يستشف ما وراء حجب المادة . وتناولت سيكارة صغيرة مذهبة من علبة جميلة من العاج حمراء ، وتنهدت عميقاً كمن انزاح عن صدره ثقل ، وراحت تنفث الدخان ذاهلة ، وربما ظنت أن الغرفة لا تضم سواها

تلك كانت حالها منذ حلت هذا البيت .. بيت كبرى اختيها ، وكانت هذه متزوجة برجل من ذوى القربى الأبعدين ، وهو من موظفى الدرجات المتوسطة فى الحكومة

* * *

تقدمت منها خادم تحمل فى صينية قدحاً من البلور الصافى صغيراً فيه شاى كانت تفضل الشرب منه ، ووضعته أمامها على المائدة الصغيرة وانسحبت بهدوء

بقيت زهاء ربع ساعة ساهمة كالحالة ثابت بعده إلى نفسها والتفتت إلى جليساتها ، وهن من صديقات اختها الحميمات وبعض قريباتها ، وكن يتحادثن بصوت خفيض حرصاً على تركها فى تفكيرها إذ كانت إلى نفوسهن أقرب وإلى قلوبهن أحب . . فلقد وجدن فيها شابة مكلومة الفؤاد خائبة الأمل . . والمرأة بطبيعتها تعطف على المرأة

* * *

أحبت فتى من ذوى قرباها لم تعرف سواه . يوم لم تكن سنها تتجاوز السادسة عشرة . بادلها الحب فأخلصت له وأحبته بأقصى ما تستطيع المرأة أن تحب . . حتى إذا أوشكا على الزواج عافها وولاها ظهره . . واختص نفسه بواحدة سواها . . كانت صديقة لها . ربما كان له بعض الحق فيما فعل لولم يبادلها الحب فى أول الأمر ، لكنه انغمر وإياها فى لج بحره الطامى جنباً إلى جنب ، حتى إذا بعدا عن شاطئه فأضناها التعب وأضحت مكدودة تخشى الغرق فى قاعه عاد وتركها لينجو بنفسه . . وقد مرت على ذلك سنتان ؛ فيا للقسوة ويا للظلم !

لم تعد تستطيع العيش حيث نكبت فى قلبها ، فما لبثت أن حزمت متاعها وزمت حقائبها واستقلت القطار السريع من البصرة مسقط رأسها . . إلى بغداد حيث أختها . فلقيت حنواً وعطفاً لا مزيد عليهما

* * *

شربت قدح الشاى بأسلوب خاص ورشاقة فذة . . ثم شرعت فى محادثة جليساتها بصوت موسيقى رخيم تخللته ضحكات صافية الرنين لكنها قصيرة يختفى تحتها ألم مكبوت وهم دفين

وجذبت نفساً طويلاً من سيكارتها ، وألقت على متكأ

كلما اقترّ محيّاكِ انجلى ... كلُّ ما فى الحسن من شكل وفنّ

أفتبقى هـــذه الفتنةُ فى ... هذه البسمةِ ان أبعدتِ عنى ؟

ويظلّ السحرُ فى عينيك إن ... كان غيرى فى مرامى نظراتك

وإذا حدّثتِ ، مثلى يجتنى ... متعاً رائعة من كلماتك ؟

إنّ للغيرةِ فى صدرى يداً ... جعلتـــه مذبحاً للشُعلِ

خبرينى كيف أدرى ان بدا ... لكِ فكر أو خيال ليس لى ..

(عاصمة الأرجنتين) الياس قنصل

الأريكة برأسها الجميل فبدت تقاطيع وجهها الرائع الفتان وجيدها الأتلع ، وتناثرت خصل شعرها الكستنائى السبط فبان جبينها الأسمر العاجى الوسيع . . ونفثت الدخان ناظرة إلى السقف ، كان صدرها يعلو ويهبط باتزان ، وكانت عيناها الجميلتان تشعان شعاعاً ينم عن ذكاء متقد وحس دقيق وعاطفة فياضة متوثبة وروح حزين وثقة بالنفس نادرة عند النساء . لم يكن شأن من شؤون الحياة ، غير ذكرى حبها ، ليشغل بالها . فليس سبب قلة كلامها وطول تفكيرها وايجازها ان تحدثت إلا تلك الذكرى ، فموارد عيشها كانت وفيرة برغم كثرة مصاريفها ، فهى فى حرز ومأمن من هذه الوجهة . فلقد كان ماتدره عليها أملاكها الموروثة عن الجدود ما يفيض عليها النعمة

* * *

ودار بخاطرها طائف من الشك : لماذا هجرها حبيبها ؟ أهى غير جميلة ؟ وبدا لها أن تخرج من الغرفة ، فاستأذنت عجلى ودخلت غرفتها وأغلقت الباب بالمفتاح وأقبلت على المرآة الكبيرة فى خزانة الملابس وراحت تحدق فيها . فاطمأنت وزال شكها وأخذها شبه غرور . لكنها سرعان ما أحست بألم يمض فؤادها وبنار تحرق وجهها ورأسها ، وتخاذلت تخاذل المرأة المطعونة فى كرامتها ، وألقت نفسها على السرير قبالة المرآة ، وراحت تناجى نفسها : إيه أيتها الطبيعة ! هل أوجدت هذا الجمال الفتان ليقاسى هذا العذاب ؟ فهل مثل هذا الشباب الغض يستحق هذا العقاب ؟ وهل مثل هذه الروح الفتية تستحق خيبة الأمل ، وتابعت محادثة نفسها ، وهى تنظر إلى صورة لأفروديت كان الحبيب الغادر أهداها لها ، وأنت يا آلهة الحب . ربطت بروابطك قلبى بقلبه فأخلصت وخان . . ولبيت نداءك وصم هو أذنيه . . فما بالك أيتها القاسية تعاقبين المخلص وتتركين الخائن . أفما كنت ترحمين المخلصة بأن تحلها من العقود التى ربطتها بها . أتنظرى إلى هذا القد الأهيف المياس ما أشد تحوله . أتنظرى إلى هذه الصفرة التى ليست من ظاهرات الشباب الحى . . أفيكفى أن يكون الوجه ساحراً والعينان فتاكتين لتكون دليل الحيوية والنشاط . إن هذا السحر العظيم فى تقاطيع هذا الوجه ، وهذا المعنى البليغ العميق فى هاتين العينين ، ليسا إلا ظواهر الحب الدفين ، فجردينها منه تجدى شبحاً من الأشباح

* * *

دق باب غرفتها فأذنت ودخلت (فيروز) وهى مربيتها وخادمتها الخاصة ... تدعوها فعادت معها إلى حيث كانت أختها والرفيقات . . لقد خشين عليها الوحدة فدعونها . . لكن نفسها كانت تزخر بشتى العوامل . . الحب ، البغض ، الغيرة . . ولكن كرامتها أخذت تتيقظ فتعمل على اخماد هذه العوامل . . ودعت (فيروز) وطلبت منها أن تغنى الأغنية التى تحبها . فاتخذت هذه وضع من يريد الغناء وشرعت فى الأغنية الشعبية العراقية المعروفة :

جَلْبَكْ صَخَرْ جلمود ما حَنْ عَلَيَّهْ
وأنت بِطْرب وبكيف والبَيَّهْ بيَّهْ

وما أتت فيروز على الأغنية حتى شرعت تبكى . . وشاركتها الجليسات . وفيما هن فى ذلك دق الباب الخارجى . . فهرعت اليه فيروز وعادت تحمل رسالة حمراء اللون عرفت من لونها أنها رسالة برقية وكانت باسمها . كانت البصرة مصدرها . . من البصرة . . . يالله . . فضتها بيد مرتجفة وقرأت :

« ماتت زوجتى بالتيفوئيد منذ أسبوع . أسفت كثيراً على ما فعلت . . إنى قادم اليكم بعد يومين . . » .

تغيرت سحنتها تماماً بعد تلاوة (البرقية) وتألقت عيناها بعزم ثابت ونظرت باحتقار إلى البرقية التى كانت لا تزال مفتوحة ومزقتها قطعاً صغيرة وألقتها فى الموقد الذى كان بالقرب منها . وقالت تتمتم :

ماتت زوجته ! . إنه قادم بعد يومين ! . ما أسخفه وما أقل عقله ! ماذا حسبنى ؟ هل بظن أنى سأبقى محبة له بعد الآن ؟ .. إن هذه البرقية خاتمة آلامى . . فلأسعد ولتعد الى الحياة . . ألا تباً له من رجل جبان . . يريد أن يسلو بى زوجته . فيا للذلة ! ويالسخرية القدر ! ليذهب وليلحق بها .. فاعدت أراه إلا خنزيراً فى عينى

واشتدت ثورة نفسها وعظم سخطها فجاءت برزمة من الخطابات وبعض الصور مربوطة بأنشوطة حريرية حمراء وألقتها كما هى فى نار الموقد . وناولت البرقية لأختها ورفيقاتها مجيبة بها على نظراتهن المتسائلة

(بغداد — ضاحية الأعظمية) سعيد عبد الاله الشهابى